الجيل الجديد والعصبية الحمائلية في الوسط العربي

حمد الله ربيع

تلخيص:

في محاولة لمعرفة مدى ارتباط أبناء الجيل الجديد "بالعصبية الحمائلية" في ضوء التغيرات التي يمر بها الوسط العربي اليوم أجريت هذه الدراسة، وقد توصلت إلى نتيجة مفادها أن "العصبية الحمائلية" عند أبناء الجيل الجديد تأخذ منحى يختلف عن المنحى المعروف عند ابن خلدون (الطاعة العمياء والانصياع التام لأوامر القبيلة إلى درجة التضحية بالنفس). "العصبية الحمائلية" أصبحت وسيلة لتحقيق "مصالح شخصية" (عمل، هيبة، قيادية، ضمان اجتماعي...الخ) وليس من أجل "مصالح جماعية". فالتغيّر الديموغرافي في القرية يشير إلى تغيّر في الخارطة الحمائلية، وفي طبيعة العلاقات الاجتماعية بين سكان القرية أنفسهم. لقد اتضح في هذه الدراسة أن التغيرات في هذا المجال أضعفت من الحمولة ووظائفها ولكنها رغم ذلك حافظت على رغبتها في اجتذاب أبناء الجيل الجديد إليها. والتغيّر الاجتماعي جعل أبناء الجيل الجديد يتبنّون مبدأ "الفردانية" على حساب مبدأ "الجماعية" لتحقيق ذاتهم بعيدين عن الحمولة، لكنهم سرعان ما يجدون أنفسهم منجذبين إلى الحمولة بعدما اتضح لهم عدم واقعية "الفردانية" بعيدا عن الحمائلية. أما المدرسة، فإنها في مناهجها الدراسية وفي بنيتها الاجتماعية لا تساهم في إضعاف "العصبية الحمائلية" وهي تتأثر بالبيئة الاجتماعية المفعمة بالحمائلية من حولها. أما أكدمة الوسط العربي فلم تثن الأكاديميين عن العودة إلى الحمائلية والتشبث بها، لأن البطالة بينهم والاغتراب الاجتماعي من المجتمعات التي درسوا بها وعدم منحهم سهولة الاندماج في أطر المجتمع المختلفة، دفعتهم إلى ساحة الحمولة كملاذ من هذه الأزمات المصيرية.

مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى أن تلقي الضوء على مدى ارتباط أبناء الجيل الجديد في "العصبية الحمائلية" في ضوء التغيرات الاجتماعية التي يمر بها المجتمع العربي عامة والقرية خاصة.
عندما يدور الحديث عن الحمولة العربية فإن ذلك لا يعني فقط الحديث عن كبار السن والشيوخ الذين يمثلونها، بل من الضروري والمهم التحدث عن الجيل الجديد من الشباب العرب وإبراز مكانتهم ودورهم في النظام الحمائلي. أبناء الجيل الجديد هم من المتعلمين الذين يعيشون عصر التغيّر والحداثة، وهو عصر التحرّر من قيود القبلية والحمائلية التي هي من صفات المجتمعات البدائية التقليدية–المحافظة.

تسعى الحمولة دائما إلى المحافظة على هويتها وكينونتها من خلال نقل وتوطيد القيم الحمائلية إلى جيل الشباب. العصبية هي "نظام قيم" كباقي النظم القيمية الأخرى، ويتم إنماء هذه القيم في الفرد منذ نعومة أظفارة عن طريق التنشئة الاجتماعية التي تبدأ في البيت (قبّاني، 1977)، فبدون هذا النظام لا يمكن للحمولة أن تستمر وأن تحافظ على كيانها بين النظم التقليدية الأخرى، ذلك لأن الحمولة هي نظام أسري واسع وممتد لا يتحقق إلا بقوة "الضمير الجمعي" لدى أعضاء العائلة.

لا تختلف "العصبية الحمائلية" بمضمونها ومعناها عن "العصبية القبلية" التي تحدث عنها العلاّمة عبد الرحمن ابن خلدون في القرن الرابع عشر في مقدمته، وتعني الالتحام بالنسب، والسعي وراء السلطة والملك، وتتصف بنصرة القريب ظالما أو مظلوما. ويعتبر أصحاب الشأن والشيوخ في الحمولة من أوقر الناس فيها، ويتمتعون بطاعة عمياء من قبل الأفراد الآخرين.

تبدأ العصبية الحمائلية عادة في عملية التنشئة، حيث يوجه ويربي الآباء أبناءهم على حب العائلة والأقارب والإخلاص لهم وطاعتهم في السراء والضراء. توطد عملية التنشئة الانتماء الحمائلي في نفس الطفل منذ نعومة أظفاره.

يقلد الأولاد آباءهم في السلوك والتعامل مع الأقرباء. فمنذ الصغر يتعوّد الولد مرافقة أبيه إلى منتديات الرجال، إلى الديوان، إلى الأتراح والأفراح، إلى المسجد...الخ. وكثيرا ما يسمع الأولاد من الآباء عن بطولات أبناء الحمولة، فيزيدهم اعتزازاً وفخراً لها (ربيع، 2004، 2007).
مرّت القرية العربية في العقد الأخير بتغيرات كثيرة في المبنى والوظيفة أضعفت معها النظام الحمائلي وباقي النظم التقليدية الأخرى.

العصبية والتغير الديموغرافي في القرية

لقد عاش أبناء الحمولة في الماضي في حارات متراصة، كل حارة ضمت بداخلها كل أبناء الحمولة. فكانت القرية عبارة عن حارات حمائلية مقسمة في مناطق وجهات معروفة للجميع. هذا التقسيم ليس إلا تعبيرا عن قوة العصبية بين الأقارب وحرصهم في الحفاظ عليها، لأن الحمولة منحتهم الدفء الاجتماعي والأمن السياسي والاقتصادي. هذا التركيز الديموغرافي للحمائل تغير مع مرور الوقت وأدى – بصورة خاصة – إلى انتشار معظم أبناء الجيل الجديد من

أبناء الحمائل في حارات مختلطة (ربيع، 2004). إن ابتعاد أبناء الحمولة عن "الحارة الأم" وانتشارهم في الحارات الجديدة للقرية والمدينة العربية، أضعف من قوة الحمولة الاجتماعية، فلم يعد هناك تواصل مباشر بينهم، والعلاقات اليومية المتواصلة لم تعد قوية كما كانت عليه في الماضي. والحارات الجديدة أصبحت مختلطة من أبناء حمائل مختلفة، لا تربطهم مصالح مشتركة (**المصدر السابق**). فمجرّد إعطاء الجيل الجديد إمكانية الانفصال عن مكان الحمولة وبيت الأب، أصبح يعني ذلك منح هذا الجيل الاستقلالية في السكن وأمور حياة أخرى. لم يعد الشاب العربي يخضع لضوابط العائلة ومعاييرها، ولم يعد يعتمد عليها في حل مشكلاته.

التغيرات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية في شتى المجالات والأطر أدت إلى ضعف الأواصر الحمائلية وأبعدت أفرادها عن بعضهم البعض. فمثلا، بينما كان أبناء الحمولة يعملون جميعا في الزراعة ويكتفون ببيت صغير يكفي لعدد كبير من الإفراد أصبحوا اليوم يعملون في مجالات أخرى غير الزراعة، ويستقلون اقتصاديا عن الأهل والأقارب، وأصبحوا ينظرون إلى مستوى معيشي أعلى، كالتعليم والبيوت الفخمة المستقلة عن بيت الأب، الاستقلالية في اتخاذ القرار وغيرها من التغيرات الأخرى (רוזנפלד، 1964؛ גינת، 1976). والانتقال إلى حارات جديدة وبعيدة عن حارة الأب والحمولة، فكان ذلك نتيجة تغيّر ثقافة المسكن، من "السكن الجماعي" إلى "السكن المنفرد" عن بيت الأب. والظاهرة الشائعة هي انتقال واستقلال ابناء الجيل الجديد عن حارة الحمولة، أما جيل الآباء والأجداد فقد اكتفوا بمكانهم ومسكنهم القديم في حارة الحمولة.

لكن رغم الانفصال الجغرافي عن الحارات الحمائلية الأصلية، بقيت هذه الفئة الشابة مرتبطة بالعائلة نفسيا، اجتماعيا وسياسيا. فوسائل التنقل والاتصال السريعة (مثل السيارات، الهواتف النقالة وغير النقالة، الانترنت) تمكّنهم من الاتصال والتواصل المستمر مع باقي أبناء الأقارب. والمناسبات العامة، مثل الأعراس، الأتراح، الأعياد تجمع القريب والبعيد لأنها ملزمة لهم ولا تعفي أحدا منهم. وأكثر مناسبة وفترة زمنية يتّحد ويتواصل فيها أبناء الحمولة من صغير وكبير، هي فترة الانتخابات المحلية، إذ فيها يجدّدون العهد ويوحدون الصفوف ويحدّدون مصالحهم العائلية والشخصية من جديد.

تزداد توقعات الحمولة من أبنائها وشبابها وتقوى في فترة الانتخابات، لأن ذلك يعني بالنسبة لها، النفوذ والسلطة. فالجميع يكون ملزمًا للإخلاص لقيم الحمولة وإثبات مدى انتمائه القوي إليها. في هذه الفترة تعتمد الحمولة على الشباب كطاقات فاعلة ونشيطة، وهم بدورهم يستجيبون لتوقّعات الحمولة منهم. تنطبق نظرية ابن خلدون عن العصبية ومدى تأثيرها في السلطة والمُلك (مقدمة ابن خلدون)، حيث يُشاهد في القرية العربية قوة "العصبية الحمائلية" من أجل الوصول إلى السلطة أو الحفاظ عليها (ربيع، 2004).

وثمة ظاهرة جديدة في القرية العربية، هي عودة الأخوة إلى السكن في مبانٍ عمودية ومشتركة، وذلك بسبب الضائقة السكنية والارتفاع الباهظ لأسعار أراضي البناء في القرية العربية (في كثير من القرى وصل سعر مساحة 500م للبناء أكثر من 100.000 $). السكن المشترك للأخوة في المباني العمودية أعاد أبناء الحمولة الواحدة إلى التقارب والتلاصق الجغرافي من جديد، لأنه في كثير من الحارات الجديدة تجمع أبناء الأقارب في مساكن عمودية، فأصبحوا قريبين جغرافيا من بعضهم البعض، كما كان آباؤهم وأجدادهم من قبل (المصدر السابق). هذا التجمع الجغرافي الجديد لأبناء الحمائل ليس مقصوداً وإنما كان عفوياً، بل قهريًا، وذلك بسبب الضائقة السكنية الخانقة وغلاء أسعار الأراضي للبناء. ومع ذلك، فرغم قرب الأخوة والأقارب من بعضهم البعض لم ترجع العلاقات الحمائلية وقوة العصبية كما كانت عليه عند جيل الآباء والأجداد. إذ يتمتع أبناء الجيل الجديد اليوم بحرية كبيرة في إدارة شؤون حياتهم الشخصية، ولا يخضعون لعملية الضبط الاجتماعي ولا الانصياع الأعمى وراء الشيوخ وأصحاب القرار في الحمولة.

أدى التغير الديموغرافي في القرية إلى تغيّرات شكلية ووظيفية في الحمولة. لقد نجح التغيّر في إضعاف الحمولة، لكنه لم يفصل أبناء الحمائل اجتماعيا ونفسيا وسياسيا عن بعضهم البعض. إن الظاهرة الحديثة في القرية اليوم تعيد تجمع أبناء الحمائل في بنايات عمودية مشتركة تجعلهم يحافظون على العلاقات المباشرة بينهم، كما كانت عند آبائهم وأجدادهم في الماضي. لا شك أن المصالح المشتركة بينهم قد ضعفت، لكن الانتماء للحمولة ما زال قائما وحياً، حيث يلاحظ ذلك في السلوك الفردي والجمعي في المناسبات الخاصة في الحمولة وفي فترة الانتخابات المحلية وعند نشوب المشاكل الحمائلية. خير دليل على طيب العلاقة بين أبناء الحمولة هو زواج الأقارب

الذي ما زال شائعا ومنتشرا، إذ وصلت النسبة في السنوات الأخيرة حوالي 45٪ أو ما يزيد (משרד הבריאות, פרסומים 2004).

من "الجماعية" إلى "الفردانية" وعلاقتها بالعصبية

يتزوّد الشاب العربي من خلال التنشئة الاجتماعية بروح "الانتماء الحمائلي"، لكن ليس بمعنى التضحية والمثول المطلق والطاعة العمياء للحمولة، كما كان الأمر في الماضي. فالتنشئة الاجتماعية عند العرب في إسرائيل تحرص على تنمية روح الانتماء للعائلة الموسّعة الذين هم أبناء الأقارب. رغم تغيّر المجتمع وأسلوب الحياة في القرية وبين الأقارب، فثمة قيم ملزمة للجميع، مثل صلة الرحم، والمناسبات العامة والأعياد.

يؤدي التغيّر نحو الحداثة إلى شيوع "مبدأ الفردانية" على حساب "مبدأ الجماعية". والمصلحة الشخصية تقدّم على المصلحة الجماعية. المؤسسات الرسمية تأخذ دورا مركزيا في خدمة الفرد، فيما أخذت الجماعة الاجتماعية تضعف وتفقد من قوتها وإمكانياتها في مساعدة ومساندة الفرد عند الحاجة. هذا التغيّر جاء على حساب الحمولة التي كانت تقدم للفرد ما يحتاجه.

يُلاحظ اليوم أن أبناء الجيل الجديد أصبحوا يُقدّمون "المصلحة الشخصية" على "المصلحة الحمائلية" في كل أمور الحياة. هذا لا يعني بأنهم قد فقدوا انتماءهم لحمولتهم، وإنما فضّلوا وقدّموا مصالحهم الشخصية على مصالح حمولتهم. لم يعد الشعور بالتضحية من أجل الأقارب شعارا قائما حيا عند أبناء الجيل الجديد. المؤسسات الرسمية تخدم الفرد وتقدم له ما يحتاج. والمجتمع اليوم هو "مجتمع تحصيليّ" يدفع الفرد للإنتاج والانجاز ويكافئه على نشاطه الفردي وليس الجماعي. فالشاب العربي يتعلم ويعمل وحده بدون أي ارتباط بالحمولة والأقارب، فجزاؤه على التحصيل والانجاز سوف يلاقيه من المجتمع ومؤسساته وليس من الحمولة.

هذا التغيّر جعل الحمولة بمثابة وسيلة لتحقيق مآرب ومصالح شخصية. ففي فترة الانتخابات المحلية وعند الحاجة في الاندماج في عمل ما في القرية يلجأ الشاب العربي إلى الحمولة التي ما زال لها تأثيرها على مستوى القرية. تعلم الحمولة بأن الشاب ليس قادرا على الاشتراك في حل وفض مشاكل حمائلية وأسرية داخلية، وتعلم ايضا بأنه غير قادر وغير مخوّل بأن يمثّلها في الأتراح، الأفراح والمناسبات الأخرى. لكنها تعلمه أنه الطاقة والقوة الحقيقية في فترة الحصول

والحفاظ على السلطة، فهو بالنسبة لها العضو الحيوي والمهم في فترة الانتخابات المحلية والقطرية من اجل الحفاظ على "السلطة المُلك"، عدا عن كونه العضو البيولوجي الذي يحافظ على كينونتها وصيرورتها كعائلة بيولوجية كبيرة. ما زالت الحمولة تلعب دورا هاما ومركزيا في حياة الصغير والكبير في القرية، فإذا استطاع الفرد أن يستقل بمجال معيّن (مثلا: المجال الاقتصادي) فإنه لا يستطيع أن يستقل في المجالات الأخرى (مثلا: مقاطعة الأفراح والأتراح، والامتناع عن انتخاب أعضاء الحمولة، والتخلّي عن الأقارب).

في نفس الوقت لم تعد الحمولة تلك الإطار الاجتماعي القوي الذي يستطيع أن يقدم كل الخدمات للفرد. فالحمولة أصبحت اليوم منزوعة الصلاحيات، إذ أضعفتها مؤسسات الدولة وعملية التغير الاجتماعي. كثيرا ما تستعين بالمؤسسات الرسمية وتعتمد عليها في أمور كثيرة، اجتماعية، اقتصادية وسياسية، فكيف لها أن تخدم أفرادها؟

لقد أصبحت العصبية مرتبطة "بالمصلحة الشخصية" وليس بالحس والانتماء العائلي المتميّز. ضعفت العلاقات الاجتماعية داخل الحمولة فضعف معها وزن وأهمية الجماعة في حياة القرية. إن التوجه اليوم هو نحو "الفردانية" والاستقلالية الاجتماعية والاقتصادية. لقد كان التكافل الاجتماعي يلزم الجميع بالتضحية والإخلاص للحمولة لكن اليوم لا تنطبق هذه المعايير على حياة الناس في القرية، فالشباب العرب لهم طموحات وتوجهات تختلف عن آبائهم وأجدادهم، والعصبية بدأت تنحصر في إطار الأسرة النواة ولا تتعداها (ربيع، 2004، 2005، 2007).

إن "الانتماء الحمائلي" عند أبناء الجيل الجديد منوط بمدى تأثير التغيرات التي تحدث في المحيط الاجتماعي والسياسي في الدولة، فكلما انفتح المجتمع أكثر وأتاح للشبيبة فرص الاندماج وتحقيق الذات أكثر، ابتعد هؤلاء عن "العصبية الحمائلية"، كما سوف تبيّنه هذه الدراسة لاحقا.

المدرسة وتأثيرها على "العصبية الحمائلية" عند الجيل الجديد

المدرسة هي مؤسسة حديثة، وتعتبر وكيل تغيير أساسي في المجتمعات الحديثة، فدور المدرسة هو تحفيز الفرد على التغيير والاستقلال في اتخاذ القرار وإدارة شؤون الحياة بعيدا عن تأثير النظم التقليدية الجماعية. ترفض المدرسة في مبدئها "العصبية الحمائلية" التي لا تنسجم مع

الفردانية والاستقلالية في اتخاذ القرار. أما دور المدرسة اليوم فهو التركيز على الفرد وإكسابه قيمًا حضارية حديثة وتوجيهه إلى الإنجاز، الطموح، والنجاح الشخصي وليس الجماعي.

تعتبر المدرسة العربية في إسرائيل مدرسة حديثة، لكن هل مناهجها الدراسية وبنيتها الاجتماعية والإدارية تجعلها تُكسب أبناء الجيل الجديد قيمًا ومبادئ حديثة مغايرة "للعصبية الحمائلية"؟

من أجل الإجابة على السؤال، لا بد من توضيح حقيقتين لا يختلف عليها الباحثون في هذا المجال:

الحقيقة الأولى هي، أن التعليم العربي يعاني منذ قيام الدولة حتى اليوم من انعدام سياسة تربوية واضحة وتمييز واضح ومزمن من قبل كل الحكومات الإسرائيلية. المناهج التعليمية غير مناسبة لثقافة وحضارة وواقع العرب في إسرائيل، فهي تهدف أساساً إلى أسرلة الطالب العربي وطمس هويته القومية والثقافية. ميزانيات التطوير شحيحة وغير كافية وبالكاد تحافظ على الوضع القائم، وهناك تدخل مباشر وغير مباشر من قبل أجهزة الدولة والسلطات المحلية في تعيينات المعلمين والمفتشين والعاملين الآخرين في سلك التعليم. وهناك مشاكل كبيرة يواجهها جهاز التعليم بسبب النقص الكبير في الخدمات المادية وغير المادية في المدارس. سبب ذلك يرجع، حسب رأي بعض الباحثين إلى انعدام "مديرية تربوية" تدير شؤون التعليم العربي بشكل مستقل (أبوعصبة، 2006، אבו עסבה 2007؛ الحاج, 2006؛ דו"ח סיכוי, 2004).

الحقيقة الثانية هي، أن المبنى الاجتماعي في المدارس العربية ما زال متأثراً بالعلاقات الاجتماعية السائدة في القرية العربية والتي لها طابع التقليدية والسيطرة وانعدام الديمقراطية. فالمعلم العربي قليلا ما يستخدم أساليب تدريس حديثة، غير مجدد للمعلومات، يُفضّل العقاب على الثواب، ويميل إلى التمييز بين الطلاب على أساس عائلي وتحصيلي. تتصف الإدارة المدرسية بالدكتاتورية وقلة التخطيط والتغيير، وينقصها أحيانا عنصر المهنية، إذ هناك المديرين الذين تم تعيينهم دون مؤهلات كافية. أما بالنسبة لعلاقة المدرسة في البيئة المحلية، فإنها ما زالت ضعيفة وتفتقر إلى برامج داعمة وبناءة من أجل دعم العملية التعليمية (حيدر، 2005؛ אבו עסבה, 2003؛ אלחאג, 1995).

هذه الحقائق تشير إلى ضعف المدرسة العربية في البنية والوظيفة، ولا تجعلها تحقق أهداف المدرسة الحديثة على الوجه الصحيح. من هنا تكون هذه المؤسسة غير قادرة تعليميا وتربويا على بناء جيل جديد يقود المجتمع إلى الحداثة والتطوير، فلا توحي المدرسة العربية إلى تكامل في البنية والوظيفة، لهذا السبب فإنها ليست قادرة على أن تهيئ الطالب إلى التعامل مع التغيرات الاجتماعية والثقافية على المستوى المحلي والعالمي. إذا كان المجتمع يلوّح بالحمائلية فلا بد إذا أن ينتقل ذلك إلى ساحة المدرسة، لأنه لا يمكن فصل الواقع الاجتماعي عن المؤسسات التربوية. الثقافة السائدة والعلاقات السائدة خارج جدران المدرسة لها تأثيرها على العلاقات داخل جدران المدرسة، لأن كل المحتوى الاجتماعي هو من نتاج هذه الثقافة. تتجلّى قمّة العصبية الحمائلية وثقافة الدكتاتورية في فترة الانتخابات المحلية وعند نشوب الخلافات العائلية، وينتقل ذلك إلى كل المؤسسات المحلية ومن ضمنها المؤسسات التربوية (ربيع، 2004). هذا الواقع لا يمكن فصله عن واقع المدرسة واعتباره طفرة عابرة، بل هو حقيقة مستقرة في بنية المجتمع وشخصيات أبنائه وتمتد إلى كل مؤسساته وتؤثر على العلاقات السائدة فيها.

لا تتطرق المناهج التعليمية إلى قيم الواقع الاجتماعي داخل القرية العربية، بمعنى أنها لا تتطرّق إلى "العصبية الحمائلية" وكيف أنه على الطالب أن يتعامل معها، إذ لم يتعلم الطالب في المدرسة كيف يتعامل مع القيم والأعراف السائدة في قريته ومجتمعه.

فمثلا، منهاج الدين الإسلامي مبنى على أساس إكساب الطلاب منظومة القيم العالمية والإنسانية المثلى المتجسدة في الشريعة الإسلامية، فهو يحث الطلاب على التسامح، التآخي، حب الغير، قيم السلام، نبذ العنف، احترام الغير، المساواة بين الأجناس، حقوق الإنسان وغيرها من قيم أخرى. لكن علاقة المعلم بالطالب، والمعلم بالمعلم، والإدارة المدرسية بالمعلمين، والعاملين في المدرسة والإدارة المدرسية، لا تسير حسب ما يتعلمه ويكتسبه الطالب في منهاج الدين الإسلامي، لأن التعامل في المدرسة بشكل عام يكون مبنيًا على السلطوية، الأنانية، المصلحة الشخصية الخ (الحاج، 2006؛ אבו עסבה, 2003؛ Mari, 1978).

تحوي المدرسة اليوم عددا كبيرا من المعلمين من كلا الجنسين ومن كل العائلات ولم يعد التعليم حكرا على أبناء حمائل غنية ومتعلمة. ثم إن تواصل واحتكاك المعلمين مع بعضهم البعض في

المدارس من شأنه أن يخفف من التعصّب الحمائلي، خصوصا أن المتعلمين اليوم هم من الأكاديميين الذين اطلعوا على أنماط حياتية وثقافية جديدة. لكن حقيقة الأمر تبيّن أن العصبية تظهر عندهم في فترة الانتخابات المحلية والحزبية وفي التعامل الشخصي مع التلاميذ. إحدى المشكلات الأساسية في شخصية المتعلم العربي هي، أنه يتعلم من أجل الحصول على الشهادة الجامعية التي تضمن له ولعائلته مكان عمل مضمون، وليس من أجل العلم والمعرفة (حيدر، 2000؛ ربيع، 2004، 2007؛ אבו עסבה, 2003).

إن اختلاط الطلاب والمعلمين في المدارس هو فسيفساء من الحمائل المختلفة التي رضيت بالتعددية وقبول الآخر. لكن هذا لا يعني أن الحمائلية قد اضمحلت واختفت، فالأبحاث عن المدرسة العربية تشير إلى تعصب المعلمين إلى عائلاتهم وتمييزهم في التعامل مع بعض الطلاب على أساس عائلي. كذلك العلاقات الاجتماعية والإدارية في المدرسة لها طابع العائلية والمحسوبيات الشخصية. السياسة المحلية، خصوصا في فترة الانتخابات، تشحن المناخ المدرسي بالحس العائلي والنزاعات الشخصية بين المعلمين، الطلاب والإدارة (المصدر السابق). ما زال كل فرد في المدرسة ينتمي إلى حمولته وليس منفصلا عنها، فالحمائلية قوية من شخص إلى آخر حسب قوة وتأثير الحمولة عليه. أما المدرسة فتبقى الإطار الاجتماعي والتربوي الوحيد الذي يخدم الجميع وبالتساوي، لكنه لا يمنع من أن يتعصب هذا الشخص أو ذاك إلى حمولته.

من الواجب والمتوقع أن تساهم المدرسة في خلق جيل جديد يبتعد عن الحمائلية، لأن الحمائلية ليست من مصلحة الفرد في المجتمع الحديث. لكن الواقع الاجتماعي داخل المدرسة العربية لا يساهم لذلك ويوجه المجتمع الحديث أفراده إلى اعتماد انتماءات وعصبيات مبدئية، سياسية، فلسفية، واجتماعية تتناسب ومبناه وتطوره، أما الحمائلية أو العشائرية فإنها تتناقض في طبيعتها مع طبيعة المجتمع الحديث وتصلح أكثر للمجتمعات التقليدية. "العصبية" هي قيم تتّحد مع بعضها لتحقق أهدافا محددة، وأهداف المجتمع الحديث تختلف عن أهداف المجتمع التقليدي، لذلك من المتوقع والطبيعي أن تختلف "العصبية" في المجتمعات المختلفة باختلاف القيم السائدة فيها (قباني، 1997). وتوحي بُنية المدرسة العربية إلى أن المجتمع العربي ما زال مقيّدا بالتقليدية ولم يتحرر بعد إلى ساحة المجتمع الحديث (رغم أنه يمرّ في مرحلة انتقالية).

من هنا يمكن استخلاص القاعدة بأن المدرسة العربية رغم مناهجها التعليمية الحديثة، فإنها في مبناها الاجتماعي ونظام العلاقات داخلها أكثر تقليدية وحمائلية وتتفق بالذات مع الواقع الذي يعيشه الطالب في قريته. من ناحية أولى، فالمناهج التعليمية لا علاقة لها بالنظام الحمائلي، ومن ناحية ثانية فإن المبنى الاجتماعي داخل المدرسة يتصف بالحمائلية في غالب الأحيان، ومن ناحية ثالثة يغلب على البيئة الاجتماعية خارج المدرسة الطابع الحمائلي. النتيجة المتوقّعة في مثل هذه الحالة تكون: أن الطالب يتأثر من البيئة المشحونة بالحمائلية أكثر مما يتأثر من المناهج التعليمية التي لا تنمّي بالطالب العصبية الحمائلية، وإنما توجهه نحو قيم ومبادئ عامة.

أكدمة الوسط العربي وعلاقتها بـ "العصبية الحمائلية"

بعد انتهاء فترة الحكم العسكري سنة 1966 وانفتاح المجتمع العربي على المجتمع اليهودي، أتيحت الفرصة لأبناء الوسط العربي أن يلتحقوا بالتعليم الأكاديمي في البلاد وخارجها. واليوم ثمة كليات إعداد المعلمين العرب وكليات مهنية كثيرة تساهم جميعها في أكدمة الوسط العربي مما أفرز شريحة كبيرة من الأكاديميين والمثقفين الذين يلعبون دورا هاما في حياة المجتمع العربي. السؤال الذي يطرح نفسه، ما هي علاقة الأكاديميين والمثقفين العرب من "العصبية الحمائلية"؟

لا يتّفق التعليم العالي بحد ذاته مع النظم التقليدية تماما، لكن هنالك عوامل اجتماعية وسياسية تجعل من الأكاديميين والمثقفين محافظين لهذه النظم ومخلصين لها. فمثلاً، عندما ينهي الشاب العربي تعليمه الثانوي ويستعد للتعليم العالي فإنه يواجه الصعوبات على أشكالها، مثل عدم قبوله لموضوع يرغب في تعليمه (خصوصا موضوع الطب، الصيدلة ومواضيع تكنولوجية كثيرة)، ثم إن هناك صعوبة شروط القبول (مثل امتحان البسيخومتري)، وسوء الوضع المادي للأهل، وقلة المنح وغيرها. وبعد إنهاء التعليم العالي يقف الخريجون مكتوفي الأيدي أمام سوق العمل "الضيق" في مجال تخصصاتهم. الانخراط في سوق العمل لكل التخصصات، خصوصا التكنولوجية والطبيعية منها، شبه معدوم، مع أن سوق العمل الإسرائيلي يعتبر من الأسواق العالمية الرائدة في مجال التكنولوجيا والعلوم الطبيعية (مصطفى، 2007؛ حاج يحيى وأبو عيطة، 2007). إن العلاقة بين العرض (الأكاديميين) والطلب (السوق)، حسب نظرية التبادل في علم الاجتماع،

تكون غير متساوية لأسباب سياسية ومبدئية، مما يُحدث عدم توازن في العلاقة بينهما (Blau, 1964; Bafu, 1977)، والنتيجة الحتمية لذلك هي بطالة الأكاديميين رغم توفر أماكن العمل لهم.

إن بطالة الأكاديميين من شانها أن تؤدي إلى رد فعل اجتماعي محتمل، كالرجوع إلى الحمولة واللجوء إليها من أجل إيجاد أماكن عمل على مستوى القرية والمدينة. والرجوع إلى الحمولة هو تعبير عن استيائهم وخيبة أملهم من عدم دمجهم في المجتمع الأكبر ومنحهم فرص التقدم والمشاركة في شتى مجالات الحياة. بعكس الحمولة التي تمنحهم الفرصة أن يكونوا قياديين فيها، وتستعين بهم في حل مشاكلها العائلية، القضائية، البيروقراطية والاجتماعية الأخرى. عندما ينتهي الشاب العربي من دراسته الجامعية فإنه يُستقبل بحفاوة من قبل الأقارب فيسمع المقولة المشهورة: "رفعت رأس عائلتك وأبناء بلدك". علامات التقدير والاحترام والفخر والاعتزاز إضافة إلى مساعدته الفعلية في إيجاد عمل له، في مؤسسات السلطة المحلية، المؤسسات التعليمية والمؤسسات المحلية الأخرى، من شأنها أن تقوّي عنده الشعور بالإخلاص والمحبة لعائلته (ربيع، 2007).

قبول الحمولة للأكاديمي وإشعاره بأنه يستحق المكافأة يقوي لديه الانتماء إليها، ويجعله يبتعد عن انتمائه وموالاته للمجتمع الأكبر الذي لم يقدّر مساعيه ولم يكافئه على إنجازاته. في نطاق القرية هناك منافسة بين الحمائل المختلفة على النفوذ والسلطة، فكل حمولة تهتم في الأساس بأبنائها وتحاول أن توفّر لهم أماكن عمل بقدر المستطاع، وكلما كانت الحمولة كبيرة وذات نفوذ سياسي ومحلّي، كان باستطاعتها خدمة أبنائها أكثر من غيرها. هذه الظاهرة تبدو جلية في فترة الانتخابات المحلية والقطرية حيث يكون التنافس على الوظائف كبيرًا. هذا "السلوك الحمائلي" يجعل الأكاديميين يتعصبون إلى عائلاتهم ويميّزون بين أبناء العائلات الأخرى مما يُضعف لديهم الشعور بالانتماء لكل أبناء القرية. هكذا يظهر على القرية العربية "ضعف الضمير الجمعي" لدى المتعلمين والأكاديميين وقلّة اهتمامهم بمشاكلها وقضاياها. تبقى العصبية إذاً في نطاق الحمولة التي ينتمي إليها الأكاديمي والمثقف، لأنها كفيلة في مساعدته ودعمه عند الحاجة أكثر من الحمائل الأخرى وأكثر من المجتمع الأكبر (الإسرائيلي) على النطاق العام.

تؤمن نظرية التبادل في علم الاجتماع بأن الحياة الاجتماعية مبنية على التبادل بين أفراد المجتمع، فالأخذ والعطاء يخلق التوازن والاتفاق. فإذا أعطى الفرد مجتمعه ما يريد فإن المجتمع سوف يكافئه على عطائ، ويمكن أن يكون التبادل بين إفراد، جماعات، مؤسسات، مجتمعات ودول (Blau, 1964; Bafu, 1977). والحمولة هي جماعة اجتماعية تكافئ كل من يدعمها ويقف بجانبها ويعزز من مكانتها. الحمولة تعيش على مبدأ التبادلية، أي إذا انصاع إليها أفرادها، كافأتهم على ذلك.

في الانتخابات المحلية العربية في إسرائيل يسود مبدأ "أعطيني أعطيك" و"أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب". الحمولة تتوقع من أفرادها أن يساندوها في الانتخابات وفي أوقات الشدائد مثل المشاكل الحمائلية وأيام الفقر والأزمات الأخرى، وإلا خذلتهم إذا احتاجوها. أما إذا ساندوها ووقفوا بجانبها فإنها تكافئهم على ثقتهم وتعصّبهم إليها، فتجازيهم بالوظائف، الاحترام، السمعة الحسنة وما إلى ذلك من مكافآت. يعاني أبناء الجيل الجديد العرب اليوم من أزمات اقتصادية واجتماعية. هذه الأزمات سبّبتها السياسة الإسرائيلية للمجتمع العربي، إذ جعلت منهم عاطلين عن العمل وخائبي الأمل من سوق العمل. هذا ما جعلهم يلجأون إلى الحمولة ليضمنوا لأنفسهم مكان عمل ومستقبل جيد في مجتمع القرية (مصطفى، 2007). ثم أن أبناء الجيل الجديد من العرب يعانون اليوم من أزمة حقيقية في الهوية السياسية والاجتماعية، مما يؤدي بهم في النهاية إلى التمسك بهويتهم الحمائلية والثبات عليها (רביע, 2007).

أما بالنسبة للغزو الحضاري التي يتعرض إليه الطالب والمثقف العربي، فله أثر كبير على تعزيز "العصبية الحمائلية" لديهم، فالدراسة في الغربة أو في الجامعات الإسرائيلية، وكذلك الاحتكاك مع هذه المجتمعات بأية طريقة كانت، يولّد لديهم الشعور بالاغتراب، فيتحول هذا الشعور إلى رد فعل عملي ومبدئي. كلّما ازداد الضغط والتأثير الحضاري عليهم، فإنهم يواجهونه بالتصدي والرفض. التعبير عن ذلك يكون عن طريق الرجوع والتمسّك بثقافة الأم للحفاظ على الهوية والتراث (Smooha, 1992؛ רכס ; חאג יחיא, 2002). وهذا الرجوع يكون عادة إلى القرية وحياة العائلة رغم كل التغيرات التي طرأت عليها وأضعفت أواصرها، ومع ذلك فالقرية العربية في إسرائيل غير قادرة على تقديم البدائل الاجتماعية للأكاديميين والمثقفين فيها إذ تفتقد إلى كل

مقومات القرية الحديثة وتعاني من تخلّف كبير في البنية التحتية والاقتصادية وكل ما يخص المؤسسات الرسمية (ربيع ، 2007؛ Smooha, 1992).

هذا ما يحدث للشباب العرب الذين يدرسون في دول أجنبية ويصطدمون بحضارات مختلفة تماما عن حضارتهم، فيلجأون إلى بعضهم البعض، ويكوّنون "ثقافات فرعية"، أي جماعات وحتى جاليات كبيرة (مثلما هو الحال في الولايات المتحدة والدول الأوروبية) ويحاولون التمسك والحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم ودينهم وتراثهم، فينشئون الجمعيات والمؤسسات لكي تخدمهم وتلبي حاجاتهم ورغباتهم (Faragallah et.al., 1997؛ Colleen, et.al., 2001؛ חאג יחיא, 2002).

إن الأكاديمي والمثقف العربي في إسرائيل ليس مندمجاً تمام الاندماج بالمجتمع اليهودي، لأسباب عديدة منها الثقافية–الحضارية ومنها السياسية، الاجتماعية ، النفسية والدينية– العقائدية، فالاختلاف الكبير بين العرب واليهود في إسرائيل يُصعّب من عملية التكيُف التام مع الآخر. لم تُفلح المدرسة بكل مناهجها الموجهة نحو دمج العرب وتغيير هويتهم القومية والاجتماعية في هدم الحواجز الحضارية بين الطرفين، ولم تنجح وسائل الإعلام ولا الجامعات بذلك أيضا. القضية هي سياسية وحضارية من الدرجة الأولى، فكما هو معروف في علم الاجتماع، أن "الصدمة الحضارية" تؤدي إلى التمسك والرجوع إلى ثقافة وحضارة الأم بدل من الانفتاح والاندماج في الثقافات والأخرى (Colleen et.al., 2001; Faragallah et.al., 1997).

الحمائلية هدفها توفير الشعور بالانتماء، القوة والأمان عند أفراد الجماعة. هذا الذي يفتقده الشاب العربي في الثقافة اليهودية. فإذا ابتعد عن عصبيته فإنه سوف يفقد عنصر الألفة، الاعتبار، القوة، التضامن، الأمن وغيرها من الصفات التي اعتادها ونشأ عليها. في هذه الحالة يرجع الشباب إلى القرية وإلى الحمولة التي يشعر بكنفها بالدفء والطمأنينة والانتماء وسد الحاجة.

الخلاصة

حاولت هذه المقالة أن تلقي الضوء على أحد المواضيع النادرة في البحوث الاجتماعية عن أبناء الأقلية العربية في إسرائيل، ألا وهي علاقة الشباب العرب بالحمائلية اليوم.

السياق الأول الذي تم الحديث عنه هو التوزيع الجغرافي ومدى تـأثيره في إضعاف الحمائليـة في القرية العربية وخصوصا عند الجيل الجديد الذي انتقل من حـارة الحمولـة إلى حـارات أخـرى. اتضح من سياق البحث إن الحارات الجديدة المختلطة لم تُثن أبناء الجيل الجديـد عـن التـشبث والتمسك بالحمولة، رغم ابتعادهم الجغرافي عنها، فما زال هنـاك ارتبـاط نفسي واجتمـاعي مـع الأقارب.

تطرّق السياق الثاني إلى التغيّر في معنـى "العـصبية الحمائليـة" الـتي ينتمـي إليهـا أبنـاء الجيـل الجديد اليوم. لقد تم التمييز بين "العصبية التقليدية" و"العصبية الحديثـة"، حيـث أن الأخـيرة تكـون مبنيّـة علـى "المـصلحة الشخـصية"، كمـا اتـضح أنـه كانـت الحمائليـة في الماضـي تتـسم بالتضحية والإخلاص التام والتبعية العمياء للجماعة، أما اليوم "فالمصلحة الشخصية" هـي الـتي تحدد سلوك أبناء الجيل الجديد مع الحمولة.

لقد كان السياق الثالث عن دور المدرسة في إضعاف "العصبية الحمائليـة" عنـد الـشباب العـرب. وقد تبيّن أن مناهج المدرسة حديثة، إلا أن المبنـى الاجتمـاعي ونظـام العلاقـات في المدرسـة لهـا طابع تقليدي، مما يعزز روح العصبية بدلا من أن يضعفها أو أن يوجـد لهـا البـدائل. فالمدرسـة العربية تتأثر بالبيئة الاجتماعية في القرية، وعليه فإنها تكون منسجمة مـع هـذا الواقـع، ولـيس مع كونها مؤسسة حديثة تنبـذ التعـصبات الحمائليـة وتوجّـه طلابهـا إلى مجتمـع حـديث غـير المجتمع التقليدي القروي.

تناول السياق الرابع الحمائلية وعلاقتها بقضية الأكاديميين والمثقفين العرب باعتبارهم جيل قيادة يحمل مسؤوليات وهموم هذا المجتمـع. إن خيبـة الأمـل مـن سـوق العمـل وصـعوبة الانـدماج في المجتمع الإسرائيلي ومؤسساته، تدفع الأكـاديمي العربـي إلى الرجـوع إلى حمولتـه الـتي تعوِّضـه وتمنحه الهيبة الاجتماعية وتحترم قدراته وانجازاته، وتحاول أن توفّر له مكان عمل على النطاق المحلي.

كانت النتيجة الأساسية من الطرح أن هـذه الفئـة الاجتماعيـة لا تتنـاقض مـع الحمولـة ككيـان اجتماعي وثقافي داعم في القرية، لأن الظروف التي يعيـشونها تجعلـهم يكونـون بحاجـة إليهـا، لأنهم لا يجدون الأطر البديلة في المجتمع الإسرائيلي التي تستجيب لحاجـاتهم وتوقعـاتهم، ثـم

إن الدولة تقف أمام تقدم وتطور الأكاديميين العرب فيلجأون إلى الحمولة ملاذًا لهم من جميع النواحي، عمل، قيادية، هيبة، مشاركة، هوية وغيرها. وفي هذا السياق كانت وقفة لبيان التأثير الحضاري على هذه الفئة المتعلمة والمثقفة، وكيفية ردود فعلهم له. الصدمة الحضارية كفيلة بأن تردّهم على جذورهم في القرية فتصبح "العصبية الحمائلية" جزءًا من هويتهم الثقافية الحديثة.

ببليوغرافيا:

ابن خلدون، ع. (2004). مقدمة ابن خلدون. القاهرة: دار الفجر في التراث.

الحاج، م. (2006). التعليم الفلسطيني في إسرائيل: بين الضبط وثقافة الصمت. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

ربيع، ح. (2004). الحمولة العربية – بين التقليدية والحداثة. جت المثلث: مسار – معهد أبحاث وتخطيط واستشارة تربوية.

ربيع، ح. (2005). الفوضى التربوية في الوسط العربي – مسؤولية الأسرة والمجتمع. باقة الغربية: أكاديمية القاسمي.

ربيع" ح. (2006). "الأسرة وصراع الأجيال في الوسط العربي". جامعة، 10: 94-106.

ربيع، ح. (2007). الأسرة وقضايا المجتمع العربي في إسرائيل. جت المثلث: كلية أحفا للتربية.

أبو عصبة، خ. (2006). جهاز التعليم في "إسرائيل": البنية، المضامين، التيارات وأساليب العمل. رام الله: مدار: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

مصطفى، م. (2006). التعليم العالي لدى الفلسطينيين في إسرائيل–تحدي حالة الهامشية. أم الفحم: "اقرأ" لدعم التعليم في الوسط العربي.

قباني، ع. (1997). العصبية: بنية المجتمع العربي. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

حاج يحيى، ق. وأبو عيطة، م. (2007). دراسات وبحوث في المجتمع العربي الفلسطيني في إسرائيل. بيت بيرل: مركز دراسات الأدب العربي.

حيدر، ع. (2000). البنية الاجتماعية للمدرسة العربية. الكرمة: مجله ثقافيه تربويه صادره عن كلية حيفا للتربية.

חידר,ע. (עורך) (2005). ספר החברה הערבית בישראל. אוכלוסייה, חברה, כלכלה. ירושלים: מכון ון ליר, הוצאת הקיבוץ המאוחד.

אבו עסבה, ח. (2003). עמדות גורמים שונים בחברה הערבית בשאלת "מבנה אלטרנטיבי למערכת החינוך הערבי בישראל". גת: מסאר, מכון מחקר, תכנון וייעוץ חינוכי

אבו עסבה, ח. (2007). החינוך הערבי בישראל: דלמות של מיעוט לאומי. ירושלים: מכון פלורסהיימר למחקרי מדיניות.

אלחאג׳, מ. (1995). המורה הערבי בישראל. חיפה: אוניברסיטת חיפה.

משרד הבריאות (2004 יולי). מצב בריאות האוכלוסייה הערבית בישראל 2004. המרכז הלאומי לבקרת מחלות, פרסום 226, ירושלים

משרד הבריאות, דו"ח תמותת תינוקות 2004. (on-line).

רביע, ח. (2007). "תפיסת החמולה בעיני האקדמאיים הערבים בישראל". בתוך: עראר, ח. וחאג יחיא, ק. (עורכים): האקדמאיים הערבים בישראל: סוגיות ודילמות (בהדפסה)

רוזנפלד, ה. (1964). הם היו פלאחים. תל-אביב: חמו"ל.

רכס, א. (עורך). הערבים בפוליטיקה הישראלית: דילמות של זהות. תל-אביב: מרכז משה דיין ללימודי המזרח התיכון ואפריקה.

גינת, י. (1976). תמורות במבנה המשפחה בכפר הערבי. תל-אביב: חמו"ל.

Collen, A. W., Bochner, S., Furnham, A. (2001). The Psychology of Culture Shock. Routledge, 2.ed. s.l.: s.n.

Faragallah, M., Shumm, W.R., Webb, F. J. (1997). Acculturation of Arab-American Immigrants: An Exploratory Study. Journal of comparative Family studies. Vol. 28.

Mari, S. (1978). Arab Education in Israel. Syracuse.

Smooha, S. (1992). *Arabs and Jews in Israel*: Change and Continuity in Mutual Intolerance. Westview, Vol. 2

Blau, P., M. (1964). Exchange and power in social life. N.Y., Wiley

Bafu, H. (1977). *Social Exchange.* Annual Review of Anthropology, 6 – 225-281.

הדור החדש והליכוד החמולתי ('העצבייה' החמולתית) במגזר הערבי

תקציר

המאמר הולך לחקור את היחס של בני הדור החדש ל"ליכוד החמולתי" בצל השינוי החברתי במגזר הערבי. הנושאים המרכזיים שנבחרו לצורך זה הם: "השינוי הדימוגרפי", "מהקוליקטיבזם לאינדיוידואליזם", "תפקיד בית הספר" ו"תהליך האקדימיזציה" במגזר הערבי. המסקנה העקרית שעלתה מהדיון היא, שלמראת השינוי בחיי הכפר והיחלשותה של החמולה, ולמראת פנייתו של הדור החדש לחיים מודרניים יותר, נשארת בשבילהם החמולה אטרקטיבית ומושכת והם נעשים יותר נאמנים ונלכדים אליה. יש לתופעה הזאת שני הסברים עיקריים: ההסבר הראשון הוא, שהשינוי החברתי בכפר הערבי לא אפס את כוחה החברתי של החמולה בחיי הפרט. ההסבר השני הוא, אכזבתם והכשלתם של בני הדור החדש מלהשתלב בחיי החברה הישראלית. שתי הסיבות האלה גרמו לתגובה צפויה של בני הדור החדש, לחזור לחמולה ולהתלכד בה כאלטרנטיבה לניכור ולאכזבות שהם חווים בחיי היום-יום: במוסדות החינוך, בתעסוקה, בהשתלבות בחברה הישראלית וכו׳.